أبو الطيب والنحاة

للأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد

المجمع : لقد ألقى صاحب الفضيلة ممثل الجامع الأزهر في المهرجان الأستاذ محمد محي الدين عبدالحميد بحثه الممتع في أبي الطيب المتنبي ، ننشر منه خلاصة درسه عن : « أبي الطيب والنحاة » ، وقدأبقينا كامل بحثه لسفر الذكرى .

ليس يسوغ لي في مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ فهو حافظ لغريبها حفظ الباحث المستقصي حتى ليسأله أبو علي الفارسي « كم لنا من الجموع على وزن فعلى » فيبادره بقوله « حجلى وظربى » ويبحث أبو علي ليلته في كتب اللغة لعله يعثر لها على ثالث فلا يجد ، ويقول أبو علي في شأنه « ما رأيتُ رجلاً في معناه مثله » وهذه الشهادة من أبي علي الذي كان يناصبه العداوة ويتحامل عليه ، كافية للدلالة على قدره ، وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريبها عالماً بمواطن استعمالها متمكناً من قواعدها خبيراً بلغات القبائل ، وله شعر جزل لا نظير له في شعر أحد من شعراء العربية ، وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ وتجانب كل انتقاء ، ولكن له مع ذلك شعراً قد جانب الطرق المشهورة في العربية الى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجاري على الألسنة ورسموه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قواعد أرادوا أن تكون هي لسان الناس عامة ، وإن أحد قد نال من ابي الطيب في حياته وبعد موته مثالاً له وجه صحيح ، وقد بقي اثره والدليل عليه فأولئك هم النحاة ، ولسنا نعني بالنحاة علماء الأعراب فحسب ، وانما نريد بهم كل من كان يتكلم في فرع من فروع العربية ، فهؤلاء هم الذين كان ابو الطيب يضيق بهم ذرعاً ، وتتألم نفسه اذا وجه واحد منهم خطابه اليه ، وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التي يكتسب بها رضاء الناس ، وهم يعمدون الى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون ان يقللوا من قيمتها ، ولم يكن النحاة فيما نعتقد قد اكثروا في تعقبه والحملة عليه لوجه العلم ولا انتصاراً للحق ، وانما كان ذلك منهم سلاحاً من اسلحة السياسة التي وُجهت الى الرجل ، وليس يعنينا بحث ذلك الآن ، ولكنا نذكر انه — مع عدم توفر حسن النية — قد امكن للنحاة ان يجدوا في شعر ابي الطيب ما يستمسكون به عليه ويتخذونه ذريعة للتشفي منه ولإرضاء سادتهم ، وكانوا يجبهونه بذلك احياناً ، وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذع في سبابه أحياناً، شأن المغيظ المحنق الذي يداخله الشك في أمرهم ، وكان ربما ضنّ عليهم بالإجابة فأحالهم على بعض أصدقائه من النحاة : حدثوا أن ابن خالويه وجه الى أبي الطيب نقداً في حضرة سيف الدولة ، فقال له أبو الطيب « اسكت ويحك فإنك أعجمي فما بالك وللعربية ، وكان مع ابن خالويه مفتاح ، فضربه به فشجّ رأسه ، وحدثوا أن سائلاً سأله عن قوله في مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل بن العميد:

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

فقال له « كيف قلت لم تصبرا ، فقال : لو كان أبو الفتح حاضراً لأجاب ، يريد أبا الفتح عثمان بن جني وكان صديقاً حميماً له ، وبعض المآخذ التي أخذها عليه النحاة تافه أو لا وجه له ، كالذي حدثوا أن ابن خالوية سمعه ينشد سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه طاسمه

فقال له « يا أبا الطيب إنما يقال شجاه بتوهمه فعلاً ماضياً ، فقال له أبو الطيب : اسكت فما وصل الأمر اليك ، يعني أنه أفعل تفضيل .

وبعض المآخذ التي أخذوها عليه صحيح لا شبهة في أنه أخطأ فيه الجادة كالتعقيد اللفظي والمعنوي واستعمال الغريب الوحشي والعدول عن سنن القياس وقبح بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المطالع وقبح بعض المقاطع وامتثال اللغات المهجورة ، وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول .

وفي كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يعدون بعضها في عيون الشعر ومحاسنه ويعدون بعضها الآخر في رذيل الشعر ومستكرهه .

أما علماء الأعراب فقد جروا على قاعدتهم في عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع أبي الطيب ، ولكن كثيراً منهم من يذكر أبياتاً من شعره في موطن من ثلاثة مواطن : موطن التمثيل لا الاستشهاد وموطن مخالفة القياس وموطن التطبيق ، وذلك في المعقد من شعره ، وقد ذكر العلامة رضي الدين في شرح الكافية بعض أبيات للمتنبي على أنها مخالفة للقياس ، وللعلامة المحقق جمال الدين بن هشام صاحب مغنى اللبيب ، ولأبي السعادات ابن الشجري في أماليه شرح وتخريجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبي الطيب ، وقد كان لأبي الفتح عثمان بن جني صديق المتنبي اليد الطولى في توجيه أنظارهما الى هذه الناحية بما بذله من جهد في تخريج شعر المتنبي ، حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له « إني لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة وإنما أقوله لك » .

أيها السادة هذه كلمتي التي كتبتها على عجل وإني لسعيد بأن أتشرف بإلقائها بين يديكم وأشكر لجنة المهرجان التي أتاحت لي هذه الفرصة النادرة للتعرف اليكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net